

دولة كانم وجهودها في نشر الإسلام في السودان الأوسط

د . زين خلف نواف
كلية التربية للبنات – قسم التاريخ
جامعة الأنبار

ملخص البحث :

- ١ – شهدت منطقة السودان الأوسط قيام دولة كانم حول بحيرة تشاد ، فكان لها دور مهم في نشر الإسلام واللغة العربية في أفريقيا .
- ٢ – لعب التجار والدعاة دوراً مهماً في انتشار الإسلام في كانم ، وكان غالبيتهم من العناصر العربي .
- ٣ – كان للعلماء والفقهاء العرب المسلمين دوراً مهماً في انتشار الإسلام في كانم ، فقد انتشأوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلبه العلم .
- ٤ – تمكنت كانم بعد أن انتشر فيها الإسلام بشكل كبير على توحيد القبائل تحت سيادتها .
- ٥ – أصبح لدولة كانم مكانة متميزة في أفريقيا وذلك لموقعها ، حيث كانت ملتقى عدة طرق للقوافل التجارية ، المتجهة شمالاً نحو البحر المتوسط وشرقاً الى حوض النيل .
- ٦ – تمتعت كانم بعلاقات خارجية منها مع مصر ، وكذلك مع الأسرة الحفصية في تونس .
- ٧ – اهتمت طائفة من أهل كانم بالتجارة وخاصة تجارة التوابل .
- ٨ – اهتمت كانم بالصناعة وخاصة صناعة الفخاريات .

Abstract

- 1- The area of centre Sudan had witnessed the foundation of Qatim country round Tishad lake. It had a great role in spreading Islam and Arabic language in Africa .
- 2- The traders and herdsmen had played an important role in spreading in Qatim who most of them were Arabs .
- 3- The christiam Arab scholars and Jurists had an important role in spreading Islam in Qatim. They coristructed Mosques and stopped the endowments on students.
- 4- Qatim united all tribes under its Sover eignty after Islam had spread .

- 5- Qatim acquired a good position in Africa due to its site where it the Junction of the road of trade caravans that going north towards the Mediterranean and to Nile basin eastwards .
- 6- Qatim acquired foreign relationships Such as with Egypt and also with Al-Hofsiya dynasty.
- 7- Cadte of Qatim People had interested in trade especially spice trade .

المقدمة :

إن قيام دولة كانم حول بحيرة تشاد كان لها دور مهم في نشر الإسلام في السودان الأوسط ، وبعد أن أنتشر فيها الإسلام واللغة العربية أصبحت محطة أنظار المسلمين ، فأخذت كانم تؤدي دوراً ثقافياً ودينياً هاماً وأصبحت مصدر من مصادر الإشعاع للحضارة الإسلامية في السودان الأوسط ، كما بسطت كانم سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقي الى حدود مصر وبلاد النوبة .

وأصبحت لكانم علاقات وثيقة مع البلدان المجاورة لها ، منها علاقات اقتصادية وثقافية مع مصر وتونس ، ومع الدويلات الإسلامية الأخرى .

نشأة دولة كانم :

يذكر ياقوت أن (كانم) بكسر النون ، من بلاد البربر ، في أقصى المغرب ، في بلاد السودان ١ .

وعن البكري ((بين زويله وبلاد الكانم أربعون مرحلة ، وهم وراء الصحراء من بلاد زويلة لا يكاد أحد يصل إليهم)) ٢ .

ويقول القلقشندي ((وبلادهم بين أفريقية وبرقة ، ممتدة في الجنوب الى سمت الغرب الأوسط)) ٣ . وقال ابن سعيد ((حيث الطول ثلاث وخمسون درجة والعرض تسع درجة)) ٤ . وحتى عام ٨٠٠م لم تكن مملكة كانم قد ظهرت للوجود ، وإنما كان ذلك الشعب المهاجر (ساو) يعيش في هذه المنطقة في حياة شبه قبلية ٥ . وقد سبق لشعب ساو أنه عاش في الأقاليم المحيطة ببخيرة تشاد في شرقيها وغربيها فبنوا عدة مدن . وهناك من يقول بانتساب هذا الشعب الى الهكسوس الذين غزوا مصر ومن يقول بأنهم من مهاجري مملكة مرو التي نشأت في السودان الشرقية ، كما أن هناك رأي آخر يرى أنهم من القبائل النيلية ٦ . ومنذ ذلك التاريخ بدأت هجرات جديدة تنهال على هذه المنطقة ٧ .

وأول هذه الهجرات هجرة (الزغاوة) وهم شعب جمع بين المؤثرات الزنجية والحامية وانتشروا في مستهل هذه الفترة في مساحة رحية تمتد من بلاد دارفور حتى بحيرة تشاد ٨ . ويقول اليعقوبي ، في وصف زغاوة ، أنهم كانوا ينزلون في موضع يقال له كانم ، ومنازلهم أخصاص القصب ٩ .

ويبدو أن الزغاوة ظلوا على الوثنية حتى النصف الأول من القرن الحادي عشر وعندما بدأ القرن الثاني عشر تعرضت الزغاوة لهجرة جديدة من الطوارق . هجرة من التبو والترا ، هذه الهجرة لم تكن شاملة بالصورة التي نتوقفها ، إنما كانت على هيئة ارسنقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والنفوذ وقد استطاعت أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها ١٠ .

وقد نلاحظ وجود ثغرة بين العصر الذي استقر فيه شعب الساو والعصر الذي قامت فيه كانم الوثنية وذلك في أعقاب انصهار الشعوب المهاجرة من الشمال والشرق . ثم تأليفها شعباً

منسجماً مستقراً اتيح له أن يشيد حكومة ودولة في القرن الثامن عشر استمرت الى القرن الثالث عشر عرفت باسم إمبراطورية كانم^{١١}.

وهي أكبر دولة نشأت في منطقة المراعي بين النيجر والنيل ، فكانت تسيطر على طرق القوافل المتجهة شمالاً الى فزان والبحر المتوسط وشرقاً الى حوض النيل^{١٢}. أي نشأت حول بحيرة تشاد ، الى الغرب من السودان^{١٣}.

وهناك نقطة ثابتة في تاريخ كانم ، فقد أكد المؤرخ اليعقوبي وجود مملكة كانم في أوائل القرن التاسع الميلادي ويدعم هذا الاعتقاد ما قال به مؤرخون آخرون منهم المؤرخ الفرنسي أرفوي الذي أشار الى تأسيس أسرة السيفية (نسبة الى سيف بن ذي يزن) في كانم حوالي عام ٨٠٠م^{١٤}.

ولا نكاد نجد أسرة حاكمة في العصر إلا وقد اصطنعت لنفسها نسباً عربياً فانتسب سلاطين كانم الى حمير^{١٥}. وهذا النسب يؤكد لنا صحة انحدارهم من أصل ملثمي ، لأن الملثمين جميعهم من صنهاجه الجنوب ينتسبون الى الحميريين وكان طبيعياً أن يحتفظ بنو سيف بهذه القرابة الوثيقة وأن يحافظوا على هذا النسب التقليدي. ويبدو أن ظهور هذه السلطنة في ظل هذه الأسرة الحاكمة كان مرتبطاً بدخول الإسلام الى أرض كانم^{١٦}. دخول الإسلام الى كانم :

إن حملة الإسلام الى تلك البقاع من القارة الأفريقية كانوا من العنصر العربي الخالص وهم الرعاة والدعاة والتجار ، الذين قاموا بنشر الإسلام في كل مكان وصلوا اليه وبفضل الإسلام صار هذا الوطن الأفريقي أمة واحدة . وأن علاقات العرب بكانم علاقات قديمة وأن اتصالاً كان قد تم بين العرب وكانم في القرن الأول الهجري ، وأن أول من بث الإسلام فيها هو رجل عربي مهاجر هو الهادي عثمان^{١٧}. وادعى أنه من ولد عثمان بن عفان (رض) وصارت الدعوة الإسلامية بعد ذلك لليزنيين من ولد بني ذي يزن^{١٨}.

ولكن البكري يذكر أنه في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي جاءت الى هذه الأماكن هجرة عربية مبكرة قام بها نفر من بني أمية بعد أن زالت دولتهم على يد بني العباس وتعرضوا للاضطهاد ، واستقر هؤلاء القوم في الأرض التي عرفت بعد باسم كانم^{١٩}.

ويشك ياقوت في هذه الرواية حيث تحدث عن كانم وأهلها في قوله ((وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا إليها عند محنتهم ببني العباس))^{٢٠}.

يؤيد بالممر في كتابه صحراء برنو والسودان ما ذهب اليه البكري من أن هجرة أموية دخلت الى هذه البلاد قادمة من جنوب مصر ، ويشير في مواقع كثيرة الى أن فريقاً من فقهاء المالكية المذهب الذي كان سائداً في مصر قبل قدوم الفاطميين من المغرب العربي الى مصر قد طردوا في عهد اضطهاد الفاطميين لأصحاب المذهب المالكي وأنهم عملوا على الدعوة الى الإسلام في تلك البلاد وعملوا على نشره^{٢١}.

فمن مصر مباشرة ، وصل الإسلام الى كانم ، فقد كانت مصر من أسبق الأقطار في اعتناق الإسلام في القارة الأفريقية ، كما أن وادي النيل عامة كان ولا يزال أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الإسلامية^{٢٢}.

كما يذكر لنا صاحب كتاب إمبراطورية البرنو الإسلامية وتبعاً لرواية متداولة عند الهوسا ، يقال إن شخصاً يعرف باسم ((أبي يزيد الفزاري ، كان يدعو للإسلام في كانم في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادي))^{٢٣}.

وهناك آراء تقول إن الذين نشروا الإسلام فيما بعدهم الأفريقيين وقد يكون المقصود بالأفريقي هم عرب مصر والسودان ويذكر ترمنجهام في كتابة (الإسلام في السودان) أن الحاميين الذين تجري في عروقهم الدماء العربية السامية الذين جاءوا اليه ليدعوا للإسلام ، والتجارة هم الذين أسسوا معظم الممالك الإسلامية في السودان ومنها كانم ، وأن العرب المتحدثين باللغة العربية هم الذين انشأوا هذه القواعد الإسلامية^{٢٤}.

ومن هنا يمكن القول أن هذه المنطقة التي تعتبر قلب القارة الأفريقية كانت ميداناً فسيحاً لهجرات عربية واسعة هاجرت الى تلك المنطقة من شتى الجهات فمن الشمال الشرقي من مصر جاءت هجرات عربية خالصة الى تلك الأجزاء وكذلك من الشمال من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب حيث هبطت تلك القبائل عبر المسالك الصحراوية ثم هاجرت شرقاً الى كانم ، وجاءت هجرات عربية أخرى من الشرق من السودان وادي النيل لتختلط القبائل العربية المهاجرة من كل الجهات مع سكان تلك المنطقة وتمتزج الدماء العربية بالدماء الزنجية ويتكون شعبي عربي مسلم استطاع أن يسيطر على هذه الأرجاء وتظهر للعالم دولة إسلامية كبرى تسمى كانم استطاعت أن تنبؤاً مكانة مرموقة بين دول منطقة السودان الأوسط والغربي وتقوم بدور هام من أجل الدعوة الإسلامية^{٢٥}

فكان مجيء الإسلام حافزاً على توحيد القبائل تحت سيادة مملكة كانم^{٢٦} . كما عمل الإسلام على تهذيب العادات القائمة ، وقضى على التقاليد الوثنية ، ومع الاسلام انتشرت العلوم الإسلامية والمدنية الإسلامية ، وازدادت اتصالاتها بأرقى الحضارات المعاصرة وهي الحضارة الإسلامية^{٢٧} .

انتشار الإسلام في كانم :

لقد انتشر الإسلام في كانم قبل أن ينتشر في برنو ، وتكونت بها دولة إسلامية منذ سنة ١٠٩٠ م ، عندما أعلن ملكها دخول الإسلام هو وحاشيته، وحث رعاياه على اعتناق هذا الدين . وكان أسمه (هوميه جيلمه) وكان ملك كانم يتخذ لنفسه لقب (ماو) وكانت عاصمته (جيمي) وقد دام حكم جيلمه اثني عشر سنة (١٠٨٥ - ١٠٩٧) وكان لتحويله الى الإسلام صدى كبير ونتائج عظيمة ، فعندما تحولت الأسرة الحاكمة في كانم الى الدين الإسلامي استطاع الإسلام أن يكسب لنفسه جبهة ثابتة في منطقة السودان الأوسط^{٢٨} .

ولقد انتشر الإسلام أولاً بالتسرب البطيء السلمي من قوم فبذا ما اعتنقته الطبقة الارستقراطية وهي الهدف الأول للدعاة المسلمين والذين كانت تركز عليهم الدعوة الإسلامية فإنه سرعان ما تتبعها بقية القبيلة وقد يحدث أن تستفيد الدعوة الإسلامية من صلتها وعلاقاتها بزعماء القبائل^{٢٩} .

وبذلك يمكن القول أن العرب المسلمين المستقرين في كانم عملوا على إضعاف النظام الديني الوثني الذي فرضته زغاوة في المنطقة وساعدوا على انهياره بارتقاء حاكم مسلم في كانم

والذي يمكن قوله أن وجود العرب والمسلمين الطويل في كانم كان مسؤولاً عن انتشار الإسلام في كانم وصعود ملك الى السلطة وتفرق اتباع النظام القديم، مما يؤكد الجغرافي العربي ابن سعيد قانلا ((إن سلطان الكانم الشهور بالجهاد وأفعال الخير ، محمدي من ولد سيف بن ذي يزن . وكانت قاعدة جدوده الكفرة قبل أن يسلموا مدينة مانان ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في كانم))^{٣١} .

وكان اعتناق الأسرة للإسلام ثم انتشار الإسلام على نطاق واسع بين أهل البلاد ، ويقول حسن محمود ((أنه من الغريب أن هذه الشعوب تظل مجهولة حتى تعتنق الإسلام فتظهر على مسرح الأحداث ، ويدخل تاريخها في عهد من النور والوضوح))^{٣٢} . ويقال أن أول ملوك كانم من المسلمين حكم أما حول نهاية القرن الحادي عشر أو في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي^{٣٣} . وأصبحت كانم دولة إسلامية ذات أهمية كبيرة وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي الى حدود مصر وبلاد النوبة^{٣٤} .

وقد انطلقت هذه الأسر بالتوسع في أواخر القرن الثالث عشر في عهد ملك دوناقة الأول وسليمان وخليفته فانتشرت نفوذها حتى بلغ حدود مصر وطرابلس ونيجيريا في الغرب^{٢٠}. وفي القرن الرابع عشر فإن كانم قد تشبعت بالروح الإسلامية وقد أثر الإسلام في هذه المناطق من جراء تحركات السكان المسلمين وهجرتهم وتأثيرهم على السكان المحليين وأيضاً نرى أهميته كعامل مؤثر في نشر الإسلام ، فقد كانت قبائل الكانمبو والكانوري من أوائل القبائل التي اعتنقت الإسلام وقد تركت بصماتها المؤثرة في تلك المنطقة على الرغم من أنهم لم يكونوا رجال بعثات إسلامية أو دعاة لنشر الإسلام إلا أنه كان لهم الفضل في نشر الإسلام بين سكان هذه المناطق ولاسيما سكان المناطق الجنوبية الوثنية^{٢١}.

وقد قامت سلطنة كانم في الحياة الإسلامية بنفس الدور الذي قامت به سلطنة مالي وسنغي من حيث اتصالها بالبيئات والدول الإسلامية المجاورة والدول الإسلامية المعاصرة ، تأكيداً لروح الأخوة الإسلامية وأفادة من الخبرات الثقافية والعلمية ، فقد سعى هؤلاء السلاطين الى مواسم الحج ، ومروا في طريقهم بمصر شأنهم شأن السلاطين الأخرى ، فالسلطان دونا ما سلطان كانم خرج حاجاً ومر بمصر في طريق السفر والعودة ويقال أنه نزل بمصر في كل مرة ثلثمائة من العبيد^{٢٢}. وقد أدهشت المصريين مواكب حجه وعظمته وقوته إلا أنه غرق في المرة الثالثة عند عيذاب في البحر^{٢٣}. وقيل أن سبب موته كان الخوف من أطماعه ونجاح جيوشه في كثير من الغزوات^{٢٤}.

وفي عهد دونمه هذا بنيت مدرسة ابن رشيق في فسطاط مصر ، وتابع خلفاء الماي دونمه العمل في سبيل تأمين حدود الإمبراطورية وقمع الفتن والضرب على أيدي الخارجين ، فعبد الله بكر حفيد دونمه (١١٧٧ - ١١٩٤م) كان مشغولاً طوال أيام حكمه في محاربة البولالا . وفي عهد سالما بن بكر ظهر خطر الصو ، وامتازت جيوشه بقوة فرسانه ، مما مكنه من مكافحة هذا الخطر أما الماي دونمه بن سالما فقد كان محارباً قوياً ، فقد قاد أكثر من حملة للتوسع غربى بحيرة تشاد أي في بلاد الهوسا^{٢٥}.

وفي عهد الماي دونمة (١٢٢١ - ١٢٥٩م) وصلت الإمبراطورية السيفية ذروتها بسبب جهود هذا الماي في توسيع حدود مملكته التي وصلت الى مشارف وادي النيل وغرباً الأشراف على طريق القوافل التجارية الصحراوية المارة عبر فزان الى الشمال الأفريقي^{٢٦}. وفي عهده كانت القوانين والأحكام تصدر من مقر السلطان وتوزع على أعوانه الاثني عشر في أرجاء الإمبراطورية وهم أعضاء (المجلس العالي) يوزع عليهم السلطة التي لا يورثها كل منهم لغيره . ولكن بعد مرور الزمن أصبح هذا الحق يورث فكثرت النزاعات على السلطة بين الوريثين^{٢٧}. فتأزمت روابط الأسرة الحاكمة وبدأ التفكك فنشبت حرب أهلية ، أشعلها طمع أبنائه^{٢٨}.

أما آخر الملوك العظام من الأسرة السيفية الذين حكموا في كانم . وقيل أن تنتقل هذه الأسرة باتجاه الغرب الى برنو ، فكان الماي عثمان بن زينب (١٢٧٩ - ١٣٠٠م) وهو الماي التاسع عشر في سلسلة الملوك السيفيين ، وأهم ما يميز عصره الحروب الطاحنة من قبائل التبو أو التدا البربرية كما أخذت قبائل الكانوري تهدد الحدود الشرقية للإمبراطورية كانم^{٢٩}.

وفي القرن الرابع عشر تعرضت كانم الى ألوان من الصراع الداخلي بسبب ثورات بعض القبائل ، وبسبب خلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، فقد ضعفت كانم نتيجة لذلك وأن أهم شيء أثر في حياة كانم هو ذلك الزحف العاتي الذي قامت به جماعات البولالا من الشمال الشرقي قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، والتي احتلت العاصمة (جيمي) واستولت على السلطة الحقيقية^{٣٠}. فقد سقطت الأسرة السيفية الحاكمة في كانم أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، بعد سلسلة طويلة من الكفاح ضد أبناء عمومته البولالا واستقروا في برنو، وبهذا ينتهي عصر سيادة كانم ويبدأ عصر سيادة برنو فيقول أحمد ابن فرتوا مؤرخ بلاط برنو زمن الماي أدريس ألوما

حوالي ١٦٠٢ م ((لقد أراد الله ، أن تحتل كانم ، قبيلة البولالا وسكان فترى وسكان واداي ، واستحال طردهم منها حتى عهد السلطان إدريس بن علي بن أحمد المتوفي حوالي ١٥٢٦ م))^{٤٦} . ويذكر القلقشندي صورة من التقاليد المحلية الغير مألوفة لدى حكام كانم فذكر ((أن ملك كانم لا يراه أحد إلا في يوم العيدين . أما في سائر السنة فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب))^{٤٧} . الأمر الذي يدل على تأثير هؤلاء الملوك بالمألوف من حياة الطوارق المثلثين في الصحراء^{٤٨} . فهم يغطون وجوههم بلبثام أو حجاب ، لا يترك منه شيئاً ظاهراً سوى العينين . ومن هذا أعطاهم العرب أسم المثلثين ومعناها المحجبين^{٤٩} .

الفكر الإسلامي في كانم :

لكي تحقق الأسرة الحاكمة في كانم بعض مظاهر الحضارة الإسلامية العربية فإنهم شجعوا الكثير من العلماء والفقهاء الذين أخذوا بنصيب من العلم في كل من مصر وبلاد الحجاز والشام وتونس والجزائر ومراكش وغيرها من البلاد الإسلامية ، بمنحهم مكانه مرموقة في المجتمع وأحاطوا أنفسهم بعدد من كتاب اللغة العربية وعلمائها وجعلوا اللغة العربية أداة الكتابة الرسمية^{٥٠} .

وقد انتحل الكانميون مذهب الإمام مالك فبنوا مدرسة للمالكية اتخذوها مركزاً للثقافة الإسلامية^{٥١} عرفت باسم مدرسة ابن رشيق في فسطاط مصر لتدريس المذهب المالكي، فضلاً عن استخدامها نزلاً للوافدين^{٥٢} . كما رحل الطلاب من كانم الى المراكز الإسلامية الثقافية في العالم الإسلامي مصر ، الأزهر ، تونس القيروان، مراكش ، فاس وغيرها من المراكز الإسلامية الشهيرة^{٥٣} .

كما نلاحظ في هذا التجمع الطابع المعروف عند المتبعين لمذهب الإمام مالك من التزمت والشدّة في الدين وتمسك الفقهاء بالتقاليد وعزوفهم عن مصاحبة السلطان وتوني الوظائف ، ثم تغلغلهم في صميم الحياة وتمتعهم بالزعامة الدينية الشعبية ، فهي نفس الصورة التي نشاهدها في المغرب الإسلامي ، ثم تقرير السلاطين لهؤلاء الفقهاء واحترامهم يزورونهم في بيوتهم ويستفتونهم ويأتمرون بأمرهم^{٥٤} .

وقد شاعت هذه التقاليد في غرب أفريقية كلها حيث يسود مذهب مالك وعلق القلقشندي على هذه الظاهرة عند أهل كانم بقوله ((يتمذهبون بمذهب مالك الإمام ذورا اختصار في اللباس ، يابسون في الدين))^{٥٥} .

وكان رجال العلم يتمتعون في البلاد بمكانة ممتازة فقد درج السلاطين على إصدار مراسيم تجعل شخص العالم وولده وماله حراماً لا تمس بسوء طيلة حياته ، وامتدت هذه الهبات الى المهاجرين من علماء المسلمين الوافدين من الشمال أو الشرق^{٥٦} .

وقد ساهمت الطرق الصوفية في إنشاء المراكز الدينية لتدريس أصول الدين وأكثر الطرق انتشاراً في كانم الطريقة السنوسية ، فقد انتشرت زوايا السنوسية في كل النواحي ولا يزال الى اليوم أتباع قليلون للسنوسية في كانم ووادي وأير^{٥٧} . فقد توثقت عرى الصداقة مع بقية الإمارات الإسلامية في جهات بحيرة تشاد فكانت خير وسيلة لانتشار الدين الإسلامي ومبادئه القويمة^{٥٨} .

دور التجار في نشر الإسلام واللغة العربية :

اتخذ التجار لأنفسهم أسم الكارمية أو الكانمية نسبة الى بلاد كانم حول بحيرة تشاد والى الشرق من برنو ، وقد أخذت تشتغل في تجارة التوابل^{٥٩} . وتذكر لنا المصادر أن طائفة من أهل كانم رحلوا الى مصر وأقاموا بها واشتركوا بنصيب موفور في تجارتها الخارجية ، وقد اتخذت هذه الطائفة مدينة قوص مركزاً لها^{٦٠} .

دولة كانم وجهودها في نشر الإسلام في السودان الأوس

وكان التجار الكارمية على جانب كبير من الورع والتقوى وقد جعلوا من أنفسهم دعاة للإسلام الى جانب اشتغالهم بالتجارة وكان منهم فقهاء ومحدثون وقراء اتخذوا التجارة حرفة لهم . واتخذ هؤلاء الكارمية التجارة وسيلة لبث الدعوة الى الإسلام وساعدهم على ذلك طول إقامتهم في البلاد واختلاطهم مع الأهليين ومعرفتهم بعاداتهم وتقاليدهم ، حتى أسلم على أيديهم كثير من أهل الحبشة وأن ملوك الحبشة إذا أرادوا أن يلتمسوا شخصاً تتوافر فيه الأمانة والثقة أختاروا من بين المسلمين لأنهم أكثر حيوية^{٦١}.

ولقد عملت التجارة على إيصال التماس الحضاري الذي حدث من جانب أهل كانم مع العالم العربي الإسلامي في شتى الوجوه وهذا جعل اللغة العربية تأخذ مكانها حتى أصبحت لغة جديدة لمجتمع جديد زادها الزمن رسوخاً^{٦٢}.

ويقول الدكتور عبد الرحمن زكي ، العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام في الحبشة الجهود التي قام بها التجار المسلمون والتي اتخذت لنفسها اسم الكارمية أو الكانمية نسبة الى بلاد كانم^{٦٣}.

ولم يرحل الكانميون الى مصر تجاراً وإنما رحلوا إليها طلاب علم التحقوا بالأزهر ، وأنشأوا في مصر مدرسة لتعليم مذهب مالك بالفسطاط وعادوا الى بلادهم يتابعون نشاطهم الثقافي^{٦٤}.

وأصبحت كانم تؤدي دوراً ثقافياً ودينياً هاماً كما أصبحت منطقة بحيرة تشاد مصدر من مصادر الإشعاع للحضارة الإسلامية في السودان الأوسط ويرجع الفضل في ذلك لقربها وأتصالها بمراكز الثقافة الإسلامية في مصر وشمال أفريقيا التي أستطاعت أن تبني معها علاقات وطيدة^{٦٥}.

كما أستعان أهل كانم بالحفصيين في تونس وفي سنة ١٢٣٧م زادت سفارة كانمية بلاد تونس لأتصالات تجارية وثقافية مختلفة^{٦٦}. كما أتصلوا بكانو وتنبتكت وجني وجاو وعملوا على تشجيع الحركة العلمية في بلادهم بتقريب العلماء والفقهاء والإغداق عليهم ، وأنشأوا المساجد وأوقفوا الأوقاف على طلبية العلم ، كما عملوا على نشر الإسلام والجهاد في سبيله^{٦٧}.

وبهذا فقد لعب التجار دوراً كبيراً في نشر الإسلام بمنطقة السودان الأوسط التي تضم كانم ووادي وبرنو وباجرمي والهوسا والبولالا ، كما كان للإسلام أثره الكبير في توحيد القبائل تحت سلطنة كانم^{٦٨}.

كما قام التجار بشراء الأسلحة النارية من بلدان حوض البحر المتوسط^{٦٩}. واستخدموا الأسلحة النارية في السيطرة على القبائل الوثنية الواقعة الى الجنوب منهم وأدخلوا الكثير منهم في الإسلام وإليهم يرجع الفضل في بسط لواء الإسلام في منطقة بحيرة تشاد كلها وأسهموا في نشر الإسلام في بلاد الحوصة^{٧٠}.

كما كان للحركة التجارية دور كبير في نشر اللغة العربية وثقافتها وتدعيمها في كانم وتوجد كثيراً من الشواهد التي تدل على عمق اللغة العربية والعروبة في تلك الديار رغم محاولات الاستعمار بعد سيطرته على تلك المناطق، العمل على محو الطابع العربي من تلك البلاد ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر الدور العربي الكبير في إقليم كانم ، فقد تأثرت بهم شعوب تلك البلاد الى حد كبير ونشروا مظاهر الثقافة العربية بين تلك الشعوب المحلية ولم يقف العرب والتجار عند حد الإقامة في هذه البلاد فحسب بل كان لهم دور بارز في تعمير البلاد وتطويرها^{٧١}.

علاقة كانم بالخارج :

اتجهت كانم الى مصر اتجاهاً واضحاً ، فكانت العلاقات وثيقة بين البلدين ، ولا بد أن صلة كانم قد توطدت بمصر ، فقد كانت أقرب هذه السلطنات من الطرق التي تسلك الصحراء الغربية في طريقها الى واحات مصر^{٧٢}، كما كانت كانم تتمتع بمكانة بارزة في أفريقيا وذلك لموقعها الذي كان ملتقى عدة طرق ثم تأثرها بحضارات النيل^{٧٣}.

دولة كانم وجهودها في نشر الإسلام في السودان الأوس

وكما بينا سابقاً إن طائفة من أهل كانم رحلوا الى مصر ، وأقاموا بها وأشتركوا بتنصيب موفور في تجارتها الخارجية والتي أتخذت مدينة قوص مركزاً لها^{٧٤}. وأخذت تشتغل بتجارة التوابل وسرعان ما عظم نفوذها وتضاعفت ثروتها وأنضم إليها التجار المسلمون من جميع البلاد^{٧٥}.

فقاموا بتصرف المحاصيل السودانية وبتجارة الرقيق ومارسوا تجارة البهار من اليمن والهند والصين ، كما أصبح لهم سوقاً تجارياً حافلاً بمنتجات أفريقية الوسطى والمغرب واليمن والهند ، وكونوا لهم نقابة هيمنت على التجارة واحتكرتها وأقاموا على نقابتهم رئيساً معترفاً به من قبل الحكومة وقد نمت ثروتهم نمواً عظيماً بحيث أصبحوا يقومون في عالم التجارة مما تقوم به البنوك الحديثة ويقرضون السلاطين في مصر والبلاد المجاورة^{٧٦}.

وعلى هذا فإنه يمكن القول أن مصر ارتبطت بروابط اقتصادية قوية مع بلاد غرب القارة وساهم في تلك الروابط التجار المصريون الذين رحلوا الى تلك الديار والتجار الكارمية من غرب أفريقيا الذين استقروا بالقاهرة وغيرها من المدن المصرية^{٧٧}.

كما اعتمد شعب كانم على بعض أصحاب الحرف ولاسيما الحدادة وأرباب التجارة ، ولم يكن في بلاد كانم التبر الذي كان سبب ثراء غانه ومالي ، لذلك لم يكن شعب كانم هدفاً لغزوات أهل الصحراء أو المغاربة^{٧٨}. ولعدم سيطرتها على مناطق الراهب فقد عوضت عنها بالسيطرة على أهم الطرق التجارية التي تربط المنطقة بساحل البحر المتوسط عند فزان وبوادي النيل عن طريق دارفور^{٧٩}.

كما كانت لكانم علاقات ثقافية مع مصر وذلك من خلال وجود مدرسة ابن رشيق وهي المدرسة التي انشأت في القاهرة لتدريب الفقه المالكي ، وقد عاد تلاميذ هذه المدرسة الذين تعلموا المذهب المالكي لبلادهم ليتابعوا نشاطهم الثقافي كما كانت مكاناً ينزل بها حجاج كانم^{٨٠}.

وبما أن وفود الحجاج كانوا يمرون بمصر في طريقهم الى الأرض المقدسة فقد سعى هؤلاء السلاطين الى مواسم الحج ومرو في طريقهم بمصر شأنهم شأن السلطنات الأخرى ، وبهذا فقد توطدت علاقة كانم بمصر عن طريق وفود الحجاج أيضاً^{٨١}.

ويقول المقرئزي أن ((مدرسة ابن رشيق... بخط حمام الريش من مدينة مصر ، كان كانم من طوائف التكرور لما وصلوا الى مصر ... قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين ابن رشيق مالا ، بناها به ودرس بها فعرفت به وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة ، وكانوا يبعثون اليها في غالب السنين المال))^{٨٢}.

كما توطدت علاقة كانم مع الأسرة الحفصية في تونس وخاصة مع الخليفة المستنصر مؤسس الدولة الحفصية واستمرت العلاقات قوية مع تبادل الهدايا واتصال الود بين ملوك كانم وبني حفص^{٨٣}. فقد استعان أهل كانم بالحفصيين في تونس ، واستطاعوا أن يفتحوا الصحراء كلها في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي^{٨٤}.

أما العملة السائدة والتي كان يتعامل بها أهل كانم فهي قطعة القماش ، الذي ينسجونه في بلادهم ويطلقون عليه أسم دندي ويبلغ طول الثوب منه عشرة أذرع أو أكثر ، كما يتعاملون بالورع والخرز وقطع النحاس والورق على أساس تسعيرها بالقماش^{٨٥}.

كما أجاد أهل كانم صناعة الفخاريات واتقنوا عمل التماثيل البرونزية ، فكان لهم مجتمع متقدم اعترف بمكانة المرأة وحظوتها ، كما كان لهذا الشعب حضارة قديمة اعترف بها علماء الآثار^{٨٦}.

المصادر والمراجع

- ١- ياقوت ، أبو عبد الله : معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر ، (بيروت ، ٢٠٠٨) ، مج ٤ ، ج ٧ ، ص ١١٦ .

- ٢- البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب والجزائر ، ١٨٥٧م ، ص ١١ .
- ٣- القلقشندي ، أحمد بن علي : صبح الأعشى ، تعليق نبيل خالد الخطيب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ج ٥ ، ص ٢٦٩ / ٢٧٠ .
- ٤- ابن سعيد ، أي الحسن علي بن موسى المغربي ، كتاب الجغرافية ، حققه إسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، بلاد ، ص ٩٥ .
- ٥- شلبي ، أحمد : التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ج ٨ ، ص ١٣٨ .
- ٦- زكي ، عبد الرحمن : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ١٧٣ / ١٧٤ .
- ٧- شلبي : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج ٦ ، ص ١٣٨ .
- ٨- محمود ، حسن أحمد : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ج ١ ، ١٩٦٧م ، ص ٢٥٥ .
- ٩- اليعقوبي ، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح : تاريخ اليعقوبي ، تعليق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٢م ، ج ١ ، ص ١٦٦ .
- ١٠- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .
- ١١- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، ص ١٧٥ .
- ١٢- شلبي : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج ٦ ، ص ١٣٨ .
- ١٣- محمد ، محمد عوض : الشعوب والسلالات الأفريقية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥م ، ص ٣١٢ .
- ١٤- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية ، ص ١٧٥ .
- ١٥- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .
- ١٦- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .
- ١٧- الغنيمي ، عبد الفتاح مقلد : حركة المد الإسلامية في غرب أفريقيا ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص ١٢٤ .
- ١٨- طرخان ، إبراهيم علي : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٧٠ .
- ١٩- البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، ص ١١ .
- ٢٠- ياقوت : معجم البلدان ، مج ٤ ، ج ٧ ، ص ١١٦ .
- ٢١- الغنيمي : المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٥ .
- ٢٢- طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ص ٦٥ .
- ٢٣- طرخان : ص ٦٦ .
- ٢٤- الغنيمي : المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٥ .
- ٢٥- الغنيمي : المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٢ / ١٢٣ .
- ٢٦- قداح ، نعيم : أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، مراجعة عمر الحكيم ، مطبعة الوحدة العربية ، دمشق ، ١٩٦٠ ، ص ٨٤ .
- ٢٧- طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ١٩٧٥ ، ص ٧٧ .
- ٢٨- شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج ٦ ، ص ٢٨٩ / ٢٩٠ .
- ٢٩- الغنيمي : المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٦ .
- ٣٠- الشихلي ، صباح إبراهيم وعادل محي الدين الألوسي : تاريخ الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، جامعة بغداد ، ١٩٨٧م ، ص ١١٢ .
- ٣١- ابن سعيد : الجغرافية ، ص ٩٥ .
- ٣٢- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .
- ٣٣- عايددين ، عبد المجيد : تاريخ الثقافة العربية في السودان ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بلات ، ص ٤٢ ؛ النعمة ، إبراهيم : الإسلام في أفريقيا الوسطى ، بغداد ، ١٩٨١م ، ص ٢٠ .
- ٣٤- حسن ، حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ١٣٠ .
- ٣٥- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .
- ٣٦- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٨ .
- ٣٧- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .
- ٣٨- طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ص ٨٤ .
- ٣٩- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، ص ١٧٧ .

- ٤٥- شلبي : التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج ٦ ، ص ٢٩١ .
- ٤٦- طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ص ١٠١ / ١٠٢ .
- ٤٧- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧١ .
- ٤٨- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .
- ٤٩- رياض ، زاهر : الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٧٢ .
- ٥٠- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٣٢ / ١٣٣ .
- ٥١- حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ١٣١ .
- ٥٢- طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ص ٧٣ .
- ٥٣- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٣٣ .
- ٥٤- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .
- ٥٥- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧١ .
- ٥٦- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، ص ٢٢٦ .
- ٥٧- طرخان : إمبراطورية البرنو الإسلامية ، ص ٧٥ .
- ٥٨- زكي : المسلمون في العالم اليوم أفريقية الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ٨٩ .
- ٥٩- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية ، ص ٤٥ .
- ٦٠- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .
- ٦١- حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ١٧١ .
- ٦٢- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٣٢ .
- ٦٣- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية ، ص ٤٥ .
- ٦٤- محمود ، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٢٦٠ .
- ٦٥- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غربي أفريقيا ، ص ١٢٩ .
- ٦٦- حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، ص ١٣٠ .
- ٦٧- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٢٦١ .
- ٦٨- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٦ .
- ٦٩- الغربي ، محمد : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، مؤسسة الخليج للطباعة الكويت ، ١٩٨٢م ، ص ١٨ .
- ٧٠- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٢٦١ .
- ٧١- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٣١ .
- ٧٢- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٢٥٩ .
- ٧٣- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ١٢٣ .
- ٧٤- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٢٦٠ .
- ٧٥- حسن : انتشار في القارة الإفريقية ، ص ١٧١ .
- ٧٦- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص ٢٦٠ .
- ٧٧- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ٤٤ .
- ٧٨- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية ، ص ١٧٥ .
- ٧٩- فليجة : أفريقية دراسة عامة وأقليمية ، ص ٤٥ .
- ٨٠- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ٤١ .
- ٨١- محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .
- ٨٢- المقريري ، نقي الدين أحمد بن علي : المواعظ والاعتبار ، تحقيق خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٨م ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .
- ٨٣- الغنيمي : حركة المد الإسلامي في غرب أفريقيا ، ص ٤٤ .
- ٨٤- حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ١٣٠ .
- ٨٥- حسن : انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ص ١٣١ .
- ٨٦- زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية ، ص ١٧٣ .

